الفصل الرابع

السلوك الفطرى والمكتسب

الإنسان كائن متحرك ، مضطر إلى سلوك طرق كثيرة تحت تأثير الظروف المختلفة المحيطة به ، وقد اتضح لنا عند الكلام على الفعل المنعكس ، كيف يسلك الإنسان حين يرد على المؤثرات التى يصادفها . فإذا وخزت شخصاً بدبوس وخزاً خفيفاً فى يده على غرة ، فإن يده تتراجع ، هذا النوع من السلوك يخلو من إرادة الشخص ، وقد يخلو من الشعور ، ونستطيع أن نقول : إن هذه الحركة هى حركة فسيولوجية بحتة .

ولكن هناك طوائف أخرى من السلوك ، تصدر عن العقل ، وعن الشعور بدرجاته المختلفة . هذا السلوك الصادر عن العقل ، المصحوب بأى نوع من أنواع الشعور ، هو الذى تهمنا دراسته فى علم النفس .

ولما كان لابد لكل حركة من دافع ، فلابد من وجود دوافع تبعث الإنسان إلى السلوك أيضاً ، هذه الدوافع نسميها الميول[1] .

وقد حاول العلماء من قديم الزمان أن يصنفوا هذه الميول ، وجميع هذه التصانيف التى اقترحها الفلاسفة ترجع فى النهاية إلى نوعين :

(١) تصنيف الميول حسب موضوعها أو ما تتعلق به ، مثال ذلك تقسيم « أفلاطون » للميول إلى ثلاثة أنواع : ميل إلى الاستمتاع ، وميل إلى السيطرة والقوة ، وميل إلى العلم .

---

(١) Tendances.

(٢) تصنيف الميول حسب طبيعتها ، وقد قسم « أرسطو » الميول تبعاً لذلك إلى نوعين : فطرية ومكتسبة .

ويخيل إلينا أن تصنيف أرسطو أدنى إلى الصواب ، وهذا هو الرأى الذى أخذ به علماء النفس فى الوقت الحاضر ، وهو السبيل الذى سنسلكه فى هذا الكتاب .

يخرج الطفل الصغير إلى العالم وعنده استعداد للرضاعة ، وميل إليها ، فهو يمص ثدى أمه بالفطرة ، هذا الميل عند الطفل لا شك أنه فطرى ؛ ويميل كثير من الناس إلى التدخين ، وهذا الميل هو ما نسميه بالعادة ، ولا شك أن عادة التدخين مكتسبة ؛ فميل الطفل إلى الرضاعة يتحقق فى صورة من السلوك لا يتعلمها الإنسان ، بينما ميل الشخص إلى التدخين يتكون من حركات وأعمال كثيرة يكتسبها الشخص .

يولد الطفل ساذجا ، إلا من دوافع تبعثه إلى الحركة ، وتؤدى إلى الاحتفاظ بكيانه . هذه الدوافع الأولى ، التى تجهز الطفل بالمؤونة التى يستعين بها على السفر فى رحلة الحياة ، هى دوافع فطرية .

والإنسان فى ذلك كالحيوان ، لأنه لا يعدو أن يكون نوعاً من جنس الحيوان ولكنه نوع راقٍ منه . فإذا نظرنا إلى ضروب الحيوان المختلفة ، نجد أن طائفة كبيرة من أعمالها وسلوكها فى الحياة تجرى بالفطرة ، وإليك مثلاً يقع تحت أبصارنا كل يوم ، ويوضح بجلاء ماذهب إليه ، فالقط الصغير الذى تربيه فى المنزل بعيداً عن أمه ، وحيداً عن أقرانه ، لا يلبث أن يرى فأراً حتى ينقض عليه فهذا السلوك الذى يسلكه القط سلوك فطرى ، لأنه لم يكتسبه ، ولم يتعلمه عن طريق القدوة أو التدريب . كذلك الطيور التى تهاجر فى فصل من فصول السنة ، لا تتعلم هذه الهجرة ، ولكنها تميل إليها بالفطرة .

هناك ميول كثيرة ، هى التى توجه كل شخص إلى الجهة التى يسلكها فى حياته ، فهذا « روسو » مثلا تعلم حرفة النقش ، وكان يزاول نقش الحيطان ، ولكنه زهد ذلك واتجه إلى دراسة الفلسفة والأدب ، رغماً عن أنه لم يكن تلميذاً وهو صغير . فكل شخص عنده ميل خاص نحو شىء من الأشياء كالموسيقى أو الأدب ، أو العلوم الرياضية ، أو الأعمال اليدوية ، بحيث يكون سلوك الإنسان قائما على أساس هذا الميل الفطرى .

فإذا كان أساس السلوك عند الإنسان فطريا ، فإن صور السلوك التى يتبعها بعد ذلك ، يكتسب أغلبها بالتعود .

وهنا نسأل أنفسنا ، كيف تصل إلينا هذه الميول الفطرية ؟

لا شك أن الاستعدادات الفطرية لا تهبط إلينا دون سبب ، ولكنها تصل إلينا عن طريق الوراثة ، وقد ثبت فى علم النبات أن الصفات الموجودة فى جيل ، تنتقل بنفسها إلى الجيل الذى يليه ، وذلك طبقا لقوانين معروفة ليس هنا محل ذكرها . ويتبع الحيوان نفس هذه القوانين ، ولكن بأسلوب أكثر تعقداً ، ومن الثابت أن الإنسان يرث الصفات الجسمية عن آبائه وأجداده ، كالطول والقصر ، والقوة والضعف ، ولون العين والشعر والبشرة ، والاستعداد للتأثر ببعض الأمراض . . . . . الخ . ومايهمنا هو تسجيل أن الإنسان يرث الصفات الخُلقية والنفسية ، كما يرث الصفات الجسمية ، ونقصد بذلك أنه يرث الاستعداد لبعض الصفات الخاصة ، حتى إذا صادفته الظروف التى تستطيع هذه الصفات أن تظهر فيها ، أسرعت إلى الظهور ، وقد أجرى العلماء كثيراً من المشاهدات على بعض الأسر ، للتحقق بالطرق العلمية والإحصاء ، إلى أى حد يتأثر الأبناء بالصفات الخُلقية عن الآباء ؛ وإليك مثلا غريباً ذكره الدكتور « جودارد » عن أسرة

كاليكاك « Kallikak » وقصة هـذه الأسرة ، أن عميدها الذى يسمى مارتن كاليكاك ، التحق فى سن الواحدة والعشرين بجيش الثورة بالولايات المتحدة عام ١٧٧٥ ، فقابل فتاة ضعيفة العقل فى أحد الفنادق واتصل بها ، وأنجب غلاماً خرج ضعيف العقل أيضا . وقد تتبعوا ذرية هـذا الغلام وعرفوا منها أربعمائة وثمانين خلفاً ، فتبين أن منهم مائة وثلاثة وأربعين شخصاً ضعاف العقول ، وستة وأربعين شخصاً ذوو عقل سليم ، ولم يكن فى الاستطاعة الفحص عن عقلية الباقين جميعاً ، ولـكنهم عرفوا أن ستة وثلاثين شخصاً كانوا أبناء غير شرعيين ، وأن ثلاثة وثلاثين إباحيون ، وأربعة وعشرين سكيرون ، وثلاثة أشخاص عرضة للصرع ، وثلاثة اتهموا بالإجرام ، وثمانية يديرون منازل للدعارة ، بينما توفى اثنان وثمانون فى عهد الطفولة .

ومن الموازنات اللطيفة فى هذه الأسرة ، دراسة الخلف الذى أنجبه مارتن كاليكاك من زوجته الشرعية ، ذلك أنه بعد أن وضعت الحرب أوزارها ، تزوج من فتاة عادية تمت إلى أسرة طيبـة ، وقد بلغت الذرية الجديدة أربعمائة وستة وتسعين شخصاً ، لم يكن بينهم رجل أو امرأة فى عقله ضعف أو خروج عن المألوف ، بل كان من بين هذا الفرع من الأسرة حكام ، وأساتذة فى الجامعة ، وآخرون ارتقوا مناصب عالية فى المجتمع .

فالميل إلى الإجرام والضـعف العقلى والاستهتار وفساد الأخلاق فى الفرع الأول من هذا الجد ، والميل إلى الاستقامة والجد والاتزان والعقل السليم فى الفرع الثانى ، لا يفسر إلا بتأثير الوراثة .